حزائيل الدِّمشقي ملك آرام (٨٤٣ – ٨٠٣ ق.م)

أ.د جباغ قابلو[1]

1) أستاذ التاريخ واللغات القديمة في قسم التاريخ في جامعة دمشق سابقًا، زميل منحة غيردا هينكل في ألمانيا حاليًا.

ملخَّص البحث

الغاية من هذا البحث تسليط الضوء على شخصية أدت دوراً محورياً في تاريخ سورية في النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد، ورغم التعرض له ولأعماله بشكل موسع في الدراسات الغربية، التي تتعلق بتاريخ سورية في هذه الفترة، فإنه ومع الأسف، لم يُذكر إلا بشكل عرضي في الدراسات العربية والسورية خاصة، وذلك في أثناء الحديث عن مملكة آرام دمشق.

وسنركز في هذا البحث على شخصية حزائيل، ودوره في تاريخ سورية، منذ توليه عرش دمشق نحو العام ٨٤٣ ق.م وحتى وفاته قرابة العام ٨٠٣ ق.م، وذلك بتسليط الضوء على علاقاته مع القوى التي كانت تؤدي دوراً في التاريخ السوري في ذلك العصر، سواء أكانت من القوى الكبرى كالآشوريين، أو القوى المحلية، وهي مجموعة الدويلات التي كانت منتشرة في المنطقة السورية الفلسطينية منذ مطلع الألف الأول ق.م.

ـ تمهيد:

من المعلوم أن المنطقة السورية، خلال تاريخها الطويل، كانت تحكمها مجموعة من دويلات المدن التي يتسع نطاق سيطرتها في بعض الأحيان ليشمل مناطق واسعة من سورية، أو يضيق نطاق السيطرة هذه ليشمل المدينة التي تقوم عليها هذه الدويلة، وما يُحيط بها من مناطق ريفية.

فمن أشهر الدويلات في الألف الثالث ق.م إبلا (تل مرديخ حالياً في محافظة إدلب)، التي شكلت ما يمكن أن نسميه إمبراطورية تجارية أكثر منها قوة عسكرية.

ولدينا من الألف الثاني ق.م يمحاض، ومركزها حلب، التي سيطرت على مناطق واسعة من الشمال السوري، مع ميناء آلالاخ (تل العطشانة) على شاطئ البحر المتوسط، وكانت قوة اقتصادية وعسكرية في آن واحد، إلى جانبها لدينا ماري (تل الحريري) في منطقة الفرات الأوسط، التي سيطرت على التجارة عبر هذا النهر بين بلاد الرافدين وساحل البحر المتوسط.

ولدينا أيضًا قطنة (تل المشرفة في حمص)، التي شكَّلت محطة تجارية هامة على الطريق الواصل بين مناطق الفرات الأوسط وساحل البحر المتوسط، وبين الطريق الممتد من الشمال السوري إلى جنوبه.

ولدينا أوجاريت (رأس شمرة) على ساحل البحر المتوسط، التي مثَّلت مركزًا تجاريًا هامًّا لنقل بضائع سورية وبلاد الرافدين إلى مصر وعالم بحر إيجة وبالعكس. وفي فلسطين لدينا مثلاً حاصور (تل القدح بالقرب من صفد)، ومجدو (تل المتسلم في سهل مرج ابن عامر شمالي فلسطين).

وإذا ما انتقلنا إلى الألف الأول ق.م نلاحظ سيطرة الدويلات الآرامية على مناطق واسعة من سورية الداخلية (بيت عديني، بيت آجوشي، حماة، دمشق، وغيرها)، مع ازدهار لمدن شاطئ البحر المتوسط (أرواد، جبيل، صور، صيدا، وغزة وغيرها)، إضافة إلى الدويلات التي أسَّستها شعوب البحر في فلسطين (غزة وعقرون وعسقلان وأسدود وجت)، إلى جانب مملكتي إسرائيل،

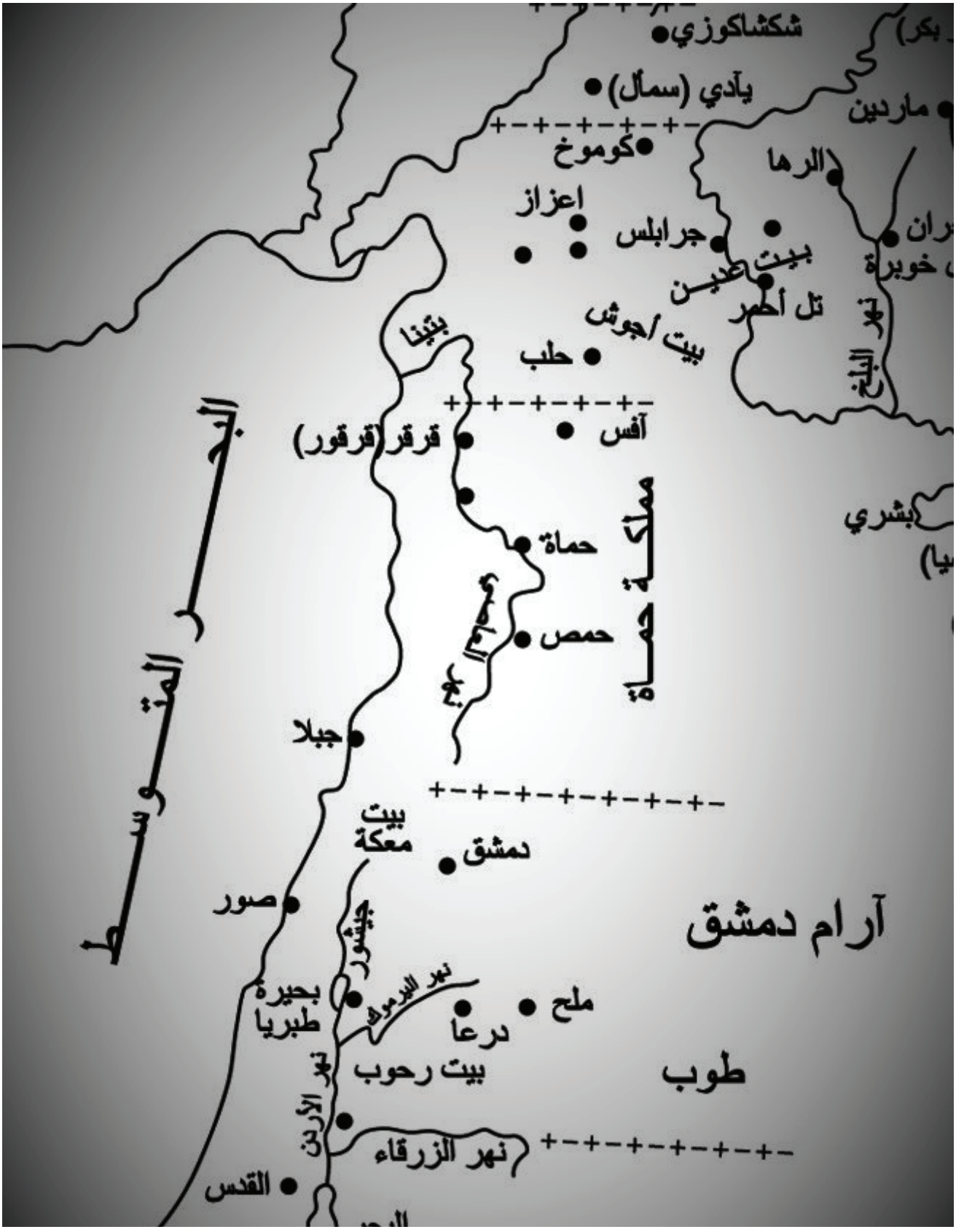

خارطة آرام دمشق

التي ترد في النصوص الآشورية تحت مسمى بيت عمري، نسبة إلى عمري مؤسس السلالة الحاكمة ويهوذا.

هذه بعض أهم الدول التي ظهرت في المنطقة السورية الفلسطينية ما بين الألف الثالث والألف الأول ق.م، وقد ارتبطت هذه الدويلات فيما بينها بعلاقات تختلف حسب الظروف ما بين علاقات سلمية إلى علاقات عدائية تصل إلى حد شن الحروب بعضها على بعض. وبنفس الوقت فإن هذه الدويلات كانت ترتبط بعلاقات مع القوى الكبرى المحيطة بسورية، التي كان لها دور فاعل في الأحداث التي تجري على أراضيها، مع محاولتها إخضاع الدويلات السورية لسيطرتها وجعلها تابعة لها[٢].

أولاً _ صعود آرام دمشق:

قبل الحديث عن صعود آرام دمشق، لا بد من الإشارة إلى أن منطقة المشرق العربي القديم شهدت قرب نهاية الألف الثاني ومطلع الألف الأول ق.م تغيرات على الصعيد السياسي العسكري. وقد ارتبطت هذه التغيرات بعوامل عديدة، يفسرها الدارسون تفسيرات مختلفة.

ويكمن جوهر هذه التغيُّرات بانكفاء أو زوال القوى الدولية الكبرى التي كانت تتنافس فيما بينها لفرض سيطرتها على سورية، أو على أن تكون حصة نفوذها وسيطرتها هي الأكبر فيها، وتمثلت هذه القوى في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م بالإمبراطورية المصرية، التي كانت تفرض سيطرتها وهيمنتها على القسم الجنوبي من سورية (فلسطين وشرقي الأردن وجزء من ساحل البحر المتوسط)، والإمبراطورية الحثية وعاصمتها حاتوشا (بوغاز كوي الحالية ١٧٠ كم شرق أنقرة)، التي كانت تفرض سيطرتها على شمالي سورية ووسطها.

ومن المعلوم أن هذه الإمبراطورية انهارت نحو العام ١١٩٠ ق.م نتيجة هجوم ما يُعرف باسم «شعوب البحر»، الذين دمروا إلى جانب الإمبراطورية الحثية عدداً من المراكز الحضرية المهمة على شاطئ البحر المتوسط الشرقي، ولعل أوجاريت كانت من أهم هذه المراكز الحضارية التي تعرَّضت للتدمير.

ولم تكتف هذه الشعوب بذلك بل هاجمت مصر عن طريقين أحدهما بري وهو عبر فلسطين، والآخر كان هجومًا بحريًّا استهدف الشواطئ المصرية المطلة على البحر المتوسط، ومن الطبيعي أن تنشغل مصر بتحصين حدودها والدفاع عن نفسها في وجه هذه الهجمات، وخاصة في عهد ملكها رعمسيس الثالث (١١٩٨ – ١١٦٥ ق.م).

وأما عن الأسباب التي كانت وراء هذه الهجمات ونتائجها الكارثية على المنطقة، فالدراسات الحديثة تُعيد ذلك إلى أسباب مناخية تمثَّلت في حدوث جفاف كبير ضرب منطقة البلقان وحوض بحر إيجة، فانطلقت هذه الشعوب وركَّزت هجماتها على المناطق المجاورة، كما وصلت آثار هذا الجفاف إلى الأناضول وسورية ومصر، حيث أُصيبت بالضعف نتيجة الانهيار الاقتصادي الذي حدث في أعقاب هذا الجفاف، ولم تتمكن القوى الموجودة هنا من التصدي لهجوم تلك الشعوب،

[٢] حول الوضع السياسي في سورية بين الألفين الثالث والثاني ق.م يمكن مراجعة كتاب: تاريخ سورية السياسي 3000 – 300 ق.م: هورست كلينغل.

فكانت النتيجةُ التدميرَ النهائيَّ لبعضها، وانشغال البعض الآخر بالتصدي لها كما أشرنا أعلاه[٣].

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الدولة الآشورية الوسطى، وخاصة في أيام حكم ملكها تيغلات بلاصر الأول (١١١٥ – ١٠٧٤ ق.م)، تدخَّلت في الشأن السوري بشكل فعال، وقام هذا الملك، كما يذكر في أكثرٍ من كتابة له، بعبور نهر الفرت ثمانيًا وعشرين مرة مستهدفًا مناطق واسعة من سورية وصولاً إلى البحر المتوسط غربًا، ولكن هذه الدولة عانت أيضًا مشاكل كثيرة بعد وفاة ملكها هذا، وانكفأت ضمن حدودها التاريخية، وغابت عن المسرح السوري لمدة تزيد على القرن.

إذن شهدت الساحة السورية نهاية الألف الثاني ومطلع الألف الأول ق.م فراغًا سياسيًّا كبيرًا، لم يملأه إلا القبائل الآرامية التي تمكنت من الاستقرار في مناطق واسعة من سورية، وخاصة الداخلية منها، وأسَّست مجموعة من دويلات المدن أو الإمارات زاد عددها على العشرين ما بين صغيرة وكبيرة، ولعل أهم هذه الدويلات التي عاشت واستمرت أكثر من غيرها، وكان لها دور مهمٌ في الحياة السياسية في سورية في مطلع الألف الأول ق.م، كانت بيت آجوشي، وعاصمتها أرفاد (تل رفعت في منطقة حلب)، وحماة، ودمشق[٤].

وإن كنا نفتقر إلى المعلومات حول المدة التي تم فيها تأسيس الإمارة الآرامية في دمشق، إلا أننا نستطيع القول، بالاستناد إلى بعض روايات العهد القديم، التي يشوبها الاضطراب وعدم الدقة، أن ذلك كان في حدود القرن الحادي عشر ق.م. وفي المقابل نجد في المصادر الآشورية أن دمشق في النصف الأول من القرن التاسع ق.م كانت قد تحولت إلى قوة كبرى في المنطقة السورية – الفلسطينية، وأنها كانت متزعمة لمجموعة الدول التي كانت في هذه المنطقة، وتتجلى هذه الزعامة في تصدُّرها لقائمة المتحالفين الذين تصدَّوا لتوغُّل الملك الآشوري شلمناصر الثالث (٨٥٩ – ٨٢٤ ق.م) في سورية، وخاضوا ضدَّه معركة قرقر الشهيرة في عام حكمه السادس (٨٥٤ ق.م).

وحسب كل الكتابات التي وضعها شلمناصر الثالث تخليدًا لهذه المعركة، فإن اسم دمشق وملكها برهدد كان يأتي في مقدمة أسماء الحكام السوريين الذين شاركوا في هذه المعركة وتمكنوا من وقف تقدم قوات الملك الآشوري. وإضافة إلى ذلك، فإن دمشق، وحسب كتابات هذا الملك، أسهمت بأكبر عدد من الجنود المشاة والفرسان من جانب قوات التحالف، مما يُفسِّر سبب تزعُّمها لهذا الحلف[٥].

ثانيًا _ دراسة مصادر فترة حكم حزائيل ملك آرام دمشق (نحو ٨٤٣ – ٨٠٣ ق.م):

حزائيل اسم آرامي يتألف من الفعل (ح ز ا) بمعنى: نظر، رأى، والاسم (إل) بمعنى: إله، وبالتالي يُصبح معنى الاسم «الذي نظر إليه الإله إيل»، أو يمكن أن يكون «هو الذي رأى الإله إيل»، وكلا التركيبين شائع في الأسماء السامية بلغاتها ولهجاتها المختلفة.

3) حول غزوات شعوب البحر أسبابها ونتائجها، انظر: غزوات شعوب البحر: نزار مصطفى كحيلة.
4) حول الانتشار الآرامي في سورية انظر: تاريخ الوطن العربي القديم: جباغ قابلو.
5) حول ظهور آرام دمشق وأهم ملوكها وعلاقتها مع القوى المحيطة بها، انظر بحثنا: دمشق الآرامية، التشكل والاسم والمعنى والتاريخ: جباغ قابلو، مجلة تاريخ دمشق، العدد الأول، 2021، ص11 – 41.

وعند دراسة فترة حكم حزائيل ملك آرام دمشق، وأحد أهم ملوك المنطقة السورية الرافدية في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م، لا بد من التعريف أولاً بالمصادر التي نعتمد عليها في هذه الدراسة.

وفي الحقيقة، ورغم أهمية شخصية حزائيل والدور المحوري الذي أداه في تاريخ سورية في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م، إلا أن المصادر عنه قليلة، ويجب على الباحث استنباط كل ما يستطيعه منها من معلومات دون المبالغة أو تأويل النصوص فوق ما تحتمل. وأما هذه المصادر فتتوزع ما بين المصادر الآشورية، والعهد القديم وخاصة سفر الملوك الثاني، وبعض النصوص الآرامية التي عُثر عليها منقوشة على بعض مواد مختلفة (عاج وبرونز) في مناطق مختلفة، بالإضافة إلى نقش تل القاضي الآرامي، الذي نسبه الباحثون إلى حزائيل ملك آرام.

ونعرض الآن لهذه المصادر، ونبين أهميتها كلاً على حده:

فالمصادر الآشورية تأتي على رأس هذه المصادر من حيث المصداقية، وتعود النصوص الآشورية التي تأتي على ذكر حزائيل إلى عهد الملك الآشوري شلمناصر الثالث (٨٥٩ – ٨٢٤ ق.م). ومن المعلوم أن هذا الملك الآشوري قام بالعديد من الحملات العسكرية غرب الفرات، كانت الغاية منها فرض السيطرة الآشورية على المنطقة السورية وصولاً إلى البحر المتوسط. وقد واجه شلمناصر الثالث في مسعاه هذا مقاومةً عنيفة من الإمارات والممالك السورية المختلفة، وكانت آرام دمشق تتزعم دائمًا هذه المقاومة.

وقد ذكر شلمناصر الثالث في كتاباته المختلفة التي تتحدث عن حملاته هذه ملكين من ملوك دمشق، كان أولهما حدد عزر، ملك آرام دمشق في النصف الأول من القرن التاسع ق.م، وكان على رأس الإمارات والممالك السورية التي واجهت شلمناصر الثالث في معركة قرقر الشهيرة إلى الشمال من حماة في العام ٨٥٣ ق.م. وأما الملك الثاني الذي ذكره شلمناصر الثالث فكان حزائيل، الذي استمر في مقاومة الآشوريين وتعطيل خططهم في سورية. وكما أشرنا أعلاه فإن للمصادر الآشورية، رغم ما تحويه أحيانًا من مبالغات في الأرقام، مصداقية كبيرة، فهي تعكس نشاطات وأعمال الجيوش الآشورية في المناطق التي تقصدها، ونستطيع من خلالها الحصول على معلومات متنوعة (اقتصادية وعسكرية)[٦].

وأما العهد القديم، فرغم التحفظات الكثيرة التي تحيط برواياته، فهذه الروايات كما نعلم دُوِّنت بالاستناد إلى روايات شفوية بعد وقوع الأحداث التي تصفها بنحو أربعة – خمسة قرون على الأقل، أي بعد ١٢ –١٥ جيلاً دون كتابة، وإضافة إلى ذلك فإن هذه الروايات خضعت لتغييرات كثيرة نتيجة عوامل إيدولوجية كثيرة، وأهمها الصراع الذي نشب بين القبائل العبرية التي دخلت فلسطين واحتلت أجزاء منها من ناحية والقوى الفلسطينية المحلية وتلك المحيطة بفلسطين وخاصة آرام دمشق من ناحية أخرى. ومع ذلك فإننا لا نجد ما يمنع من الاستعانة بهذه الروايات بعد تمحيصها، وخاصة أثناء كتابة تاريخ حزائيل، فهذه الروايات تقدم صورة واضحة وجلية عن مدى قوة هذا الملك الآرامي وتمكنه من إخضاع الكيانين السياسيين اللذين

[6] حول المصادر الآشورية المتعلقة بشلمناصر الثالث وآرام دمشق عامة وحزائيل خاصة انظر:
Assyrian rulers of the Early First Millennium BC II) 858 – 745): A. Kirk Grayson، 1991

أسَّستهما القبائل العبرية في فلسطين (إسرائيل ويهوذا).

وأما المصادر الآرامية التي تأتي على ذكر حزائيل أو تنسب إليه فهي بضعة نقوش، وُجدت في أماكن مختلفة (أرسلان طاش حداتو القديمة، نمرود كلخو القديمة، جزيرة ساموس اليونان)، بالإضافة إلى النقش الذي كُشف عنه في العام ١٩٩٣ في موقع تل القاضي على سفوح جبل الشيخ (حرمون) في فلسطين المحتلة، ونُسب في البداية إلى الملك الآرامي الدمشقي برهدد (الأول)، ولكن الدراسات الحديثة أرجعته إلى ملكنا حزائيل، ونظرًا لأهمية هذا النقش فسوف نتوقف هنا لنلقي نظرة عليه وعلى الإشكاليات التي يطرحها.

يقع تل القاضي الذي عُثر على هذا النقش فيه على المنحدر الجنوبي لجبل الشيخ، في منطقة تربط جبال الجولان السوري ومزارع شبعا اللبنانية وسهل الحولة الفلسطيني، وعُثر أثناء عمليات التنقيب التي كانت تجري في الموقع من قبل بعثة تابعة لدولة الاحتلال الإسرائيلي على ثلاث كسر تُمثِّل أجزاء من مسلة مصنوعة من الحجر البازلتي، الكسرة الأكبر عُثر عليها في موسم التنقيب ١٩٩٣، في حين عُثر على الكسرتين الأصغر في الموسم التالي[٧].

ويعتقد بعض الباحثين أنَّ هذه الكسرات الثلاث لا تنتمي إلى نقش واحد، وإنما هما نقشان مختلفان، فالأحرف في الكسرتين الأكبر لا يُشبه بعضها بعضًا مما يدل حسب رأي هؤلاء على أنهما يمثلان نقشين مختلفين، يعودان إلى فترتين زمنيتين مختلفتين، في حين يرى البعض الآخر خلاف ذلك، حيث يرون في الكسر الثلاث أجزاء من مسلة واحدة نُقش عليها النص الآرامي[٨].

ومن الأمور التي أثارت النقاش في أوساط

قطعة عاجية عثر عليها في قصر حزائيل

7) بيت داود حقيقة أم خيال: زيدان كفافي، مجلة أدوماتو، العدد 25، صفر 1433ه – يناير 2012. ص.96.
8) بيت داود حقيقة أم خيال: زيدان كفافي، ص 96.

الباحثين في هذا النقش أنه وبحسب أنصار المدرسة التوراتية فإن هذا النقش يَذكر لأول مرة ومن خارج العهد القديم اسم «بيت داود»، ولكن هذا الاسم، في حال كانت القراءة صحيحة، يحمل تفسيراً آخر وهو أن الكلمتين هنا متصلتين، وبالتالي لا تدلان على اسم علم مثلما يرد في النقوش، مثلاً «بيت آجوشي أو بيت بخياني»، وإنما على الغالب المقصود هنا اسم مكان مثلما نقول بيت لحم (بيت الطعام أو بيت الخبز)، ورغم جدية هذا الطرح فإنه تم تجاهله لأسباب لا تخفى على أحد[٩].

وكما أشرنا أعلاه فإن النص اختُلف في البداية في نسبته إلى أي من ملوك دمشق بين برحدد الأول (النصف الأول من القرن التاسع ق.م)، أو برحدد بن حزائيل (نهاية القرن التاسع والربع الأول من القرن الثامن ق.م). ولكن الرأي الغالب الآن أن هذا النص يتحدث عن انتصار الملك حزائيل على دولتين هما إسرائيل ويهوذا.

تعطينا هذه النقوش على قلتها ومحتواها الفقير فكرة عن أعمال حزائيل العسكرية والمناطق التي كانت خاضعة لسيطرته وهي بلا شك تعد مصدراً أساسيًّا في دراسة شخصية حزائيل. وسنعود إلى محتوى هذه النقوش في مكانها أثناء هذه الدراسة.

ثالثًا _ تولِّي حزائيل عرشَ دمشق الآرامي:

يرتبط تولِّي حزائيل العرش في دمشق بمشاكل عدة، أولها تاريخ صعوده على العرش، وثانيها علاقته بالملك السابق له، بمعنى آخر هل هو وريث شرعي أم مغتصب للعرش الآرامي الدمشقي، وثالثها الطريقة التي تولى فيها العرش.

إن مصادرنا عن تولي حزائيل العرش في دمشق نستقيها من مصدرين أساسيين، هما العهد القديم وتحديداً سفر الملوك الثاني، الذي يذكر رواية مطولة عن هذا الموضوع، والمصدر الثاني هو نصوص شلمناصر الثالث الملك الآشوري، التي تشير بصورة عرضية إلى مسألة تغيُّر السلطة الحاكمة في دمشق، فمن يحكم في دمشق لا يهمُّها كثيراً، بقدر ما يهمُّها سياسة هذا الحاكم تجاه الآشوريين وسياستهم في سورية. ومن خلال هذين المصدرين سنحاول الإجابة عن التساؤلات المتعلقة بتولي حزائيل السلطة في دمشق.

فعن بداية حكمه، لا نستطيع الجزم بتاريخ محدد لهذه البداية، ولكننا نستطيع وضعها في فترة تلي العام ٨٤٥ ق.م، وقبل العام ٨٤١ ق.م، وذلك بالاستناد إلى تواريخ حملات شلمناصر الثالث إلى سورية، ففي حملة العام ٨٤٥ ق.م كان الملك برحدد الثاني هو الذي واجه تقدم قوات شلمناصر الثالث غربي الفرات، وكان معه في هذه المواجهة بعض قوى الحلف السوري الذي واجه نفس الملك الآشوري في معركة قرقر شمالي حماة الحالية نحو العام ٨٥٥ ق.م. وأما حملة العام ٨٤١ ق.م فكانت المرة الأولى التي يواجه فيها شلمناصر الثالث مملكة آرام دمشق وملكها الجديد حزائيل، وبذلك تكون بداية فترة حكم حزائيل بين هذين التاريخين، والأرجح أنها كانت نحو العام ٨٤٣ ق.م.

9) بيت داود حقيقة أم خيال: زيدان كفافي، ص97.

بردية من القرن الخامس قبل الميلاد مكتوبة باللغة الآرامية تحكي قصة المستشار الحكيم (أحيقار)، المتحف المصري في برلين

والمسألة الثانية التي تطرحها مسألة تولي حزائيل السلطة في دمشق هي مدى شرعية توليه السلطة، وترتبط هذه المسألة بمسألة أخرى، هي طبيعة علاقته بالملك السابق.

وفي الحقيقة فإن مصدرنا الأساسي عن هذه المسألة هو العهد القديم، الذي بنى معظم الباحثين رأيَهم فيما يتعلق بهاتين المسألتين على روايته. وترد مسألة تولي حزائيل السلطة في دمشق في موضعين من هذا الكتاب: سفر الملوك الأول ١٩ : ١٥ – ١٧، وسفر الملوك الثاني ٨: ٧ – ١٥.

ففي سفر الملوك الأول نقرأ أن الرب أمر النبي إيليا بالذهاب إلى دمشق، وأن يمسح حزائيلٍ ملكًا عليها، «فقال له الرب: ارجع في طريقك إلى دمشق، فإذا وصلت امسح حزائيل ملكا عليها ...». وهنا كما نلاحظ لا توجد أي إشارة إلى الطريقة التي وصلت فيها السلطة إلى حزائيل، ومصير الملك السابق له، ويبدو أن كاتب هذا النص يريد أن يجعل من أنبياء بني إسرائيل مانحين للسلطة، والملك ليس على بني إسرائيل وحدهم، وإنما حتى على الملوك الآخرين، بحيث يبدو وكأن آراميي دمشق كانوا خاضعين لأنبياء بني إسرائيل، وفي هذا بعد كبير عن الحقيقة.

وأما الرواية التي ترد في سفر الملوك الثاني عن تولي حزائيل السلطة في دمشق فتحمل في طياتها تفاصيل مختلفة عما يرد في سفر الملوك الأول، وسياق رواية سفر الملوك الثاني تتصل بزيارة إليشع إلى دمشق، وكان ملكها بنهدد (كما يُذكر اسمه هنا) مريضًا، وكان الملك قد سمع عن معجزات يقوم بها إليشع فيما يتعلق بشفاء المرضى وإحياء الأموات، فطلب من حزائيل الإسراع إليه وسؤاله عن إمكانية شفائه.

نقرأ في سفر الملوك الثاني ٨: ٧ – ١٥ : فقال الملك لحزائيل: « ... خذ هدية واذهب لاستقبال رجل الله، قل أن يسأل الرب هل أُشفى من مرضي هذا . فذهب حزائيل لاستقباله، ومعه أربعون جملاً تحمل أجود ما في دمشق، فجاء ووقف أمامه وقال: ابنك بنهدد، ملك آرام، أرسلني كي أسألك إن كان سيُشفى من مرضه. فأجابه إليشع: الرب أراني أنه يموت، ولكن اذهب وقل له أنه سيُشفى. وثبَّت رجل الله نظرَه وحدَّق إلى حزائيل حتى ارتبك، ثم بكى. فسأله حزائيل: لماذا تبكي يا سيدي؟ فأجاب: لأني علمت بما ستفعله ببني إسرائيل من الشر. فأنت ستحرق حصونهم بالنار، وتقتل فتيانهم بالسيف، وتسحق أطفالهم، وتشقُّ الحوامل من نسائهم. فقال حزائيل: ما أنا سوى رجل مطيع يا سيدي، فكيف أفعل هذا الأمر العظيم؟ فقال إليشع: الرب أراني إياك ملكًا على آرام. فانصرف حزائيل من عند إليشع ودخل على سيده الذي سأله: ماذا قال لك إليشع؟ فأجابه: قال لي إنك تُشفى. لكنه في اليوم التالي أخذ غطاءً وغمسه بالماء، وضغط به على وجه سيده فاختنق، وملك هو مكانه».

وكما قلنا فقد بنى المؤرخون المعاصرون على هذه الرواية أموراً تتعلق بتولي حزائيل السلطة في دمشق، لعل أهمها أنه كان موظفًا مقربًا من بنهدد (برهدد الثاني) ملك آرام دمشق، دون أي إشارة إلى قرابة تجمعه معه، وأنه مغتصب للسلطة قتل سيده مستغلاً مرضه ليتولى السلطة مكانه. وما نلاحظه هنا وكما لاحظنا أيضًا في سفر الملوك الأول، وإن كان هنا بطريقة مختلفة نسبيًّا، حيث لا يجد هنا أمرًا إلهيًّا لإليشع ليمسح حزائيل ملكًا على آرام، وإنما مجرد رؤية من الرب بأنه هو من سيكون الملك. ولكن كلتا الروايتين تحاولان التأكيد على دور لأنبياء بني إسرائيل في موضوع من يتولى العرش الآرامي الدمشقي، دون أن يكون لهذه الرواية أي سند تاريخي حقيقي. والأمر اللافت في هذه الرواية هو الكيفية التي توصَّل فيها كاتب العهد القديم أن حزائيل قد قتل سيده «بنهدد» عن طريق خنقه بوسادة مبللة بالماء؟ وكما يقول يونغر راولسون وبشيء من السخرية من هذه الرواية: «باستثناء تشريح الجثة الذي تم إجراؤه بمهارة من قبل فريق الطب الشرعي الآرامي، فإن اغتيالاً مثل الموصوف في الملوك الثاني الإصحاح الثامن سيكون غير قابل للكشف. لا يمكن سوى للشائعات أن تربط حزائيل بمثل هذا القتل عن طريق الخنق، لذا مهما كانت المكائد الطموحة التي ينسبها المرء إلى حزائيل، سيكون هناك مجال للشك، خاصة إذا كان من المعروف أن حدد عزر (بنهدد في العهد القديم) كان مريضًا[١٠]».

وإذا ما انتقلنا إلى الروايات الآشورية حول تبدُّل السلطة في دمشق، فإننا نلاحظ أن النصوص الآشورية التي تتحدَّث عن حملات شلمناصر الثالث غربي الفرات، التي تولت دمشق قيادة القوات التي قاومت هذا التقدم، لا تُعير مسألة تبدل السلطة في دمشق أهمية تُذكر، ويبدو أن هذا لم يكن أمرًا مهمًّا بالنسبة لها، فهي تهتمُّ بسياسة من يتولى السلطة في دمشق وموقفه من الآشوريين أكثر من اهتمامها بشخصه.

ولذلك نلاحظ أنه في كتابة واحدة من الكتابات المتعلقة بحملة العام الثامن عشر من حكم شلمناصر الثالث (٨٤١ ق.م) تذكر موضوع تبدُّل السلطة في دمشق: «حدد عزر انتهى إلى الأبد، حزائيل ابن لا أحد امتلك عرشه». وهذه النص أيضًا من النصوص التي يبني الباحثون

[10] A Political History of the Aramaeans: K. Lawson Yonger Jr. P 605.

رأيهم عليها في موضوع عدم شرعية حكم حزائيل. فالنصوص الآشورية عادة عندما تستخدم مصطلح «ابن لا أحد» فهذا يعني أن الحاكم المعنيَّ ليس ابن الحاكم السابق، أو لا ينتمي إلى الأسرة الحاكمة على الأقل، وأنه مغتصب للعرش. ولكن في المقابل فإن هذا النص لا يشير إلى مقتل برحدد ملك دمشق فهو يقتصر على القول بأنه «انتهى إلى الأبد» على خلاف النص التوراتي الذي يذكر صراحة أن حزائيل قد قتله خنقًا.

وبغض النظر عن مسألة هل قتل حزائيل سلفَه أم لا، فإن البعض من الباحثين يُشكِّكون في شرعيته في الوصول إلى السلطة ويجادلون في ذلك، بأن حزائيل لم يُشر إلى ذلك صراحة، أي أنه ابن الملك السابق، في نقش النصر الذي نصبه في تل القاضي مثلما فعل ذلك مثلاً بركب ملك شمأل عندما قال «وأنا بركب بن فنموا بفضل إخلاصٍ أبي وإخلاصي أجلسني سيدي ركب إيل وسيدي تجلت فليسر على عرش أبي»[11]، ولكنه عوضًا عن ذلك نراه يفعل كما فعل زكور في نقشه الذي عُثر عليه في أفس، عندما نسب توليه العرشٍ إلى إرادة الإله بعل شمين، وفيه: « ... فأنقذني بعل شمين، وقام معي، وجعلني بعل شمين ملكًا علىٍ حزرك»[12]. وحزائيل في هذا النقش يدين بتوليه السلطة إلى الإله حدد «لكن هدد جعلني ملكًا»[13].

ولكن من الباحثين، ومنهم الفرنسية «ديون»، وانطلاقًا من نقش تل القاضي الآرامي، تجزم بأن حزائيل ليس فقط حاكمًا شرعيًّا، وإنما هو ابن لملك دمشق السابق برحدد الثاني، ففي السطر الثالث من النقش يرد ـ حسب قراءتها له ـ أنَّه في الفترة بين وفاة الأب (برهدد) واعتلاء الابن (حزائيل) يذكر النص «اختراقًا غامضًا لإسرائيل في (بيت أبي)»[14].

ونختتم هذا الجانب من موضوعنا بالقول بأننا لا نستطيع الجزم بصحة رواية سفر الملوك الثاني حول الكيفية التي تولى فيها حزائيل السلطة في دمشق، وربما كانت الغاية من هذه الرواية الطعن بشرعيته بسبب الهزائم التي ألحقها ببيت عُمري (إسرائيل) ويهوذا، وانتزاع مساحات كبيرة من الأراضي منهما وضمها إلى دمشق، وهذا الأمر سنُشير إليه فيما بعد، ونعتقد أن مسألة قيام حزائيل بقتل الملك السابق برهدد الثاني (بنهدد في سفر الملوك الثاني) مسألة لا نستطيع الأخذ بها أو القبول بها، وتبقى أمامنا المسألة الأخرى، وهي مسألة انتماء حزائيل إلى الأسرة الحاكمة من عدمه.

فنصوص العهد القديم لا تؤكد ولا تنفي صلة حزائيل بسلفه برهدد الثاني، ففي حين يكتفي سفر الملوك الأول بذكر أن الرب طلب من إيليا التوجُّه إلى دمشق ومسح حزائيل ملكًا عليها دون ذكر أي توضيح للوضع الذي كان عليه في دمشق، فإن سفر الملوك الثاني يذكر، كما أشرنا أعلاه، مرض ملك دمشق برحدد الثاني، وأن إليشع تنبأ لحزائيل بأنه سيكون ملكًا على آرام، وأنه سيضطهد بني إسرائيل، ومن ثم يتحدث عن قتل حزائيل لسلفه وتوليه السلطة، وهنا النص لا يشير إلى صلة نسب تربط بين حزائيل وسلفه، ويكتفي بذكر أنه «خادمه»، ولا نستطيع من خلال استخدام هذا المصطلح نفي أن تكون هناك صلة نسب أو قرابة بين حزائيل وبرحدد الثاني.

11) اللغة الآرامية القديمة: فاروق اسماعيل، ص 307

12) اللغة الآرامية القديمة: فاروق اسماعيل، ص 211.

13) A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. P 604.

14) Les Arameens A L` Age du Fer: Dion. P 193.

وأما النص الآشوري، وهو من المصادر المهمة كما قلنا لكل ما يتعلق بتاريخ دمشق الآرامي، فهو لا يشير إلا بصورة عرضية إلى تبدُّل السلطة في دمشق. وهناك نص وحيد من بين كل النصوص الآشورية المتعلقة بالعلاقة بين حزائيل والآشوريين يصفه بأنه «ابن لا أحد». ومع أن هذا المصطلح يُفسر بأن من تولى العرش لم يكن صاحب الحق بتولي السلطة، إلا أنه لا يُشير إلى أنه لا ينتمي إلى الأسرة الحاكمة أو لا تربطه قرابة بسلفه. ومن جهة أخرى فإن هذا المصطلح يُشير في «النصوص الآشورية والبابلية إلى شخص ينتمي والده إلى الفرع الرئيسي للعائلة المالكة، وهو يُعبر عن حكم قِيمي ذي دلالات سلبية أي مغتصب»[١٥].

ومن خلال ما أوردناه أعلاه نرى أن حزائيل لم يكن بعيدًا عن الأسرة المالكة في دمشق، وأنه بحكم قربه من ملكها السابق برهدد، فلا بد من أن يكون موضوع ثقته وعلى صلة قرابة ونسب به، ولما توفي برهدد، وكان مريضًا، حسب نص سفر الملوك الثاني، فإنه تولى زمام الأمور في دمشق مكانه. ومع أننا لم نحظ بمعلومات كافية عن وجود وريث شرعي لبرهدد من عدمه، فإننا لا نستطيع إلا التسليم بأن تولي حزائيل للسلطة في دمشق كان بطريقة شرعية حتى وإن لم يكن هو الوريث الشرعي لبرحدد الثاني.

ثالثًا _ علاقات حزائيل الخارجية:

في ظل عدم توفر معلومات، ولو بالحد الأدنى، عن أعمال حزائيل على الصعيد الداخلي، فإننا سنتوقف هنا عند أعماله على الصعيد الخارجي، التي تتعلق بعلاقته بالقوى المحيطة القريبة منه (الدول التي كانت موجودة في المنطقة الفلسطينية تحديدًا)، أو القوى البعيدة (الدولة الآشورية). ولما كنتُ قد عالجت جوانب من هذا الموضوع في مقالي المنشور في العدد الأول من هذه المجلة (مجلة تاريخ دمشق المحكمة)، فإنني سأركز هنا على جوانب لم نتوقف عندها في مقالنا السابق، وخاصة فيما يتعلق بأسباب ودوافع الحملات العسكرية للملك حزائيل.

إن المعلومات الأساسية حول نشاطات حزائيل العسكرية في مناطق شرقي الأردن وفلسطين نستقيها من بعض روايات العهد القديم ومن تفسير نتائج أعمال التنقيب الأثري التي جرت في مواقع مختلفة من هذه المناطق، وأما عن علاقته مع الآشوريين فهي مستقاة من النصوص الآشورية المتعلقة بحملات شلمناصر الثالث غرب الفرات. وسنحاول أن نتابع أعمال حزائيل حسب التسلسل الزمني لهذه الأعمال.

إن الحرب الأولى التي خاضها حزائيل كانت مع بيت عُمري، وقد مرت هذه الحرب بمراحل متعددة تختلف في تاريخها وطبيعتها، وهي تشكل بمجملها المسار الذي اتخذته عملية التوسع الإقليمي لدمشق في عهد حزائيل:

المرحلة الأولى: تمثلت بالصراعات المبكرة في جلعاد (منطقة عجلون) مع إسرائيل خلال الأيام الأخيرة لسلالة بيت عُمري.

المرحلة الثانية: ضم المناطق الشمالية من فلسطين بعد تراجع اهتمام الآشوريين بالمنطقة

)15(A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. P 598.

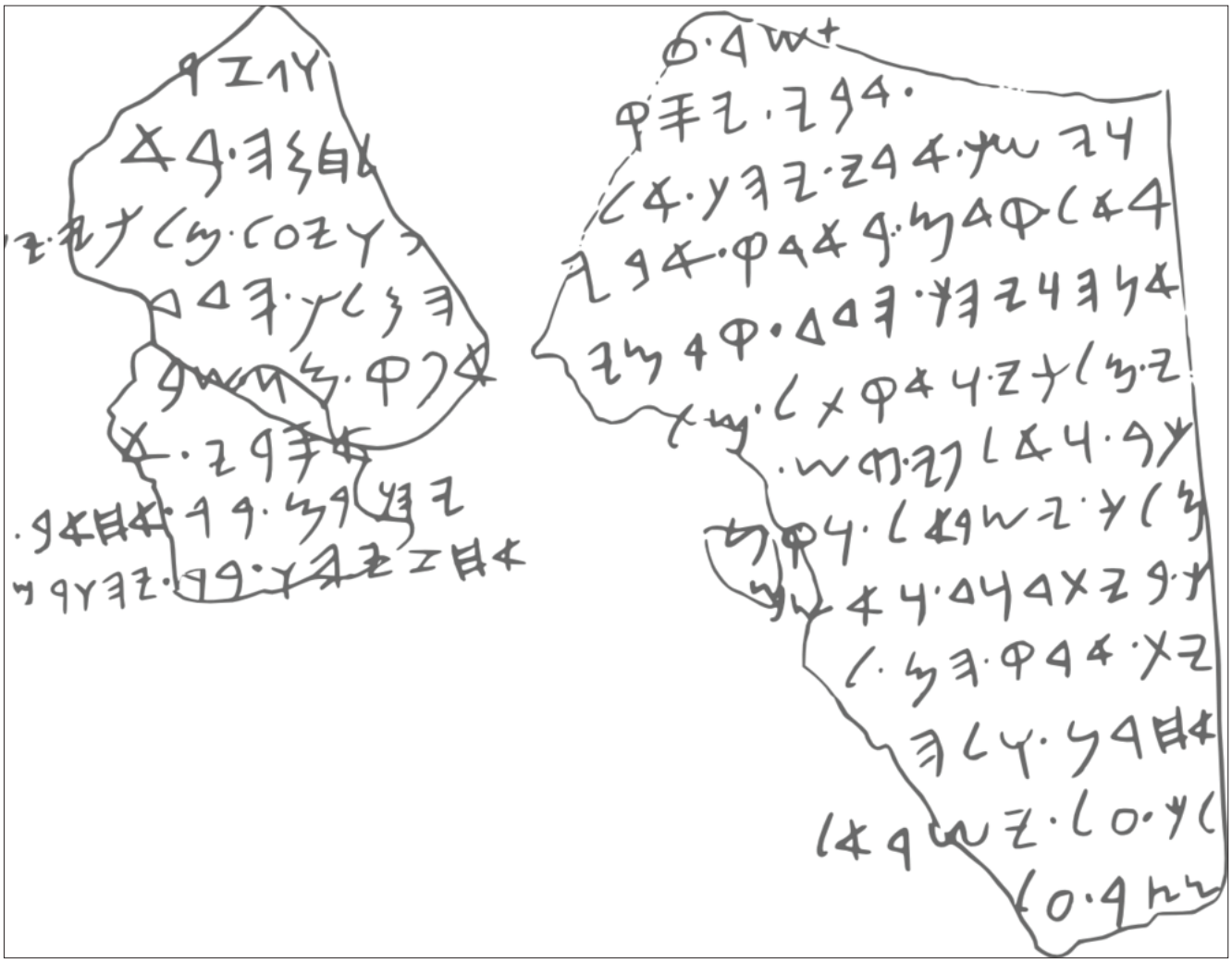

كتابات نقش تل القاضي

بعد حملة العام ٨٣٨ ق.م.

المرحلة الثالثة: حملة أو حملات بعيدة إلى مناطق وسط وجنوبي فلسطين تمت قرب نهاية القرن التاسع ق.م أو أواخر أيام حزائيل[١٦]. وسنعود إلى هذه المراحل بشيء من التفصيل فيما يلي.

بداية نقول إنه ومن خلال نقش تل القاضي يتبيَّن لنا أنه في الفترة بين وفاة برهدد الثاني وتسلم حزائيل السلطة استغلت السلطة الحاكمة في بيت عُمري الوضع لاقتطاع مساحات من الأراضي التي كانت خاضعة لآرام دمشق، ولكن مع صعود حزائيل إلى السلطة بادر إلى مهاجمة بيت عمري، ولم يكتف حزائيل باستعادة الأراضي التي كانت آرام دمشق قد خسرتها سابقًا نتيجة الأوضاع التي كانت تمر بها، وإنما وسَّع من نطاق المناطق التي كانت خاضعة لسيطرته المباشرة، وتلك الخاضعة لمنطقة نفوذه غير المباشرة. نقرأ في نقش تل القاضي: « ... واضطجع

)16(The Damascene Subjugation of the Southern Levant as a Gradual Process (ca. 842 – 800 BCE). In: Search for Aram and Israel. Politics، Culture، and Identity. Edited by Manfred Oeming ...، Tübingen 2016. P 58- 59.

أبي (مات). ذهب إلى آبائه. لكن حدد جعلني ملكًا. ومشى حدد قبلي (أمامي)، ورحلت مع سبعة ملوك، وقتلت اثنين من الملوك الأقوياء الذين أوقفوا آلاف المركبات والفلاسان. وقتلت يورام بن [آخاب] ملك إسرائيل. وقتلت أنا آخازياهو بن يورام»[١٧].

إذن الحرب الأولى لحزائيل كانت ضد بيت عُمري ويهوذا. وهنا يُطرح السؤال عن سبب هذه الحرب، مع أن آرام دمشق في عهد ملكها برهدد الثاني، وإسرائيل في عهد ملكها آخاب، وحسب النصوص الآشورية المتعلقة بمعركة قرقر، كانتا متحالفتَين، وواجهتا التوسع الآشوري سوية؟ ويبدو أن حلفاء برحدد الثاني، أو حدد إيدري كما تسميه النقوش الآشورية، شعروا بأنهم لم يعودوا ملزمين بالوفاء بالعهود التي قطعوها لآرام دمشق بعد وفاته، وفضلوا الانسحاب من المواجهة مع الآشوريين، إما لعدم ثقتهم بحزائيل، أو لعدم رغبتهم بتحمل عبء الإتاوة التي ربما كانت تفرضها دمشق عليهم. ولكن خليفة آخاب ذهب إلى أبعد من مجرد فرط عقد التحالف مع دمشق، فبادرها بالعداء بأن استغل موت برهدد الثاني ليحتل مساحات واسعة من أراضيها. ولكن ردة فعل حزائيل كانت ربما غير متوقعة، حيث بادر بالهجوم واستعادة ما كانت دمشق قد خسرته من أراضيها، واستولى على مساحات واسعة من الأراضي التي كانت تُسيطر عليها بيت عُمري، وذلك بشهادة نصوص سفر الملوك الثاني ١٠ : ٣٢ (وفي تلك الأيام بدأ الرب يقتطع من أرض إسرائيل، فاحتل حزائيل ملك آرام جميع المناطق شرقي الأردن إلى مدينة عروعير ونهر أرنوك (وادي الموجب في الأردن) جنوبًا، ومنها جميع أراضي جلعاد وباشان التي يسكنها بنو جاد ورؤوبين ومنسي). من خلال هذا النص، والذي لا نجد مبررًا للتشكيك فيه، نرى أن حزائيل قد ضم في هذه المرحلة من الحرب معظم مناطق شرقي الأردن لسيطرته وجعلها جزءًا من مملكته.

ولدينا نص آخر في سفر الملوك الثاني يشير إلى حروب حزائيل مع إسرائيل ويهوذا «وخرج أخزيا مع يورام بن آخاب لقتال حزائيل ملك آرام في راموت جلعاد، فجرح الآراميون يورام فرجع للعلاج في يزرعئيل (سهل مرج ابن عامر)، ونزل أخزيا الملك إلى هناك ليعوده في مرضه (ملوك ثاني ٨: ٢٨ – ٢٩)». وربما يؤكد هذا النص التوراتي ما ورد في نقش تل القاضي من أن حزائيل قد قتل يورام بن آخاب ملك إسرائيل، وإن كان النص التوراتي يذكر أنه مات متأثرًا بجروحه في المعركة التي خاضها الطرفان في راموت جلعاد (في منطقة عجلون في الأردن حاليًا). إذا ومن خلال نصوص العهد القديم ومن خلال نقش تل القاضي يتبين لنا أن يورام بن آخاب هو من بدأ الحرب وكانت ردة الفعل قوية من حزائيل[١٨].

ولكن هناك مشكلة في تأريخ هذه الحرب، هل وقعت قبل حملة العام الثامن عشر لشلمناصر الثالث على سورية، التي واجهه فيها حزائيل منفردًا بعد أن تخلى عنه حلفاؤه، أم بعد هذه الحملة؟ فمن المعلوم أن حملة العام الثامن عشر وقعت في العام ٨٤١ ق.م، وفيما يتعلق بالقسم الخاص منها بحزائيل يمكن تقسيمها إلى قسمين أو مرحلتين، الأولى عندما تحصَّن حزائيل في عاصمته دمشق عند سفوح جبال سنير (ربما جبل الشيخ أو جبال الزبداني)، حيث واجه هنا جيوش شلمناصر الثالث، والمرحلة الثانية من هذه الحملة كانت عندما انسحب حزائيل إلى

)17(A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. p 597

)18(The Damascene Subjugation of the Southern Levant as a Gradual Process (ca. 842 – 800 BCE (p. 60.

عاصمته وتحصن فيها، ولكن شلمناصر الثالث الذي أدرك على ما يبدو صعوبة استيلائه على دمشق غادرها واتجه نحو حوران مدمرًا عددًا كبيرًا من المدن والقرى[١٩]. ونحن نرى أن حملة حزائيل ضد بيت عمري قد جرت قبل هذه الحملة، فمع أن حزائيل لم يتكبد خسائر كبيرة في جيشه بعد حملة شلمناصر الثالث هذه، إلا أنه ولا شك تعرض لخسائر على الصعيدين البشري والاقتصادي نتيجة التدمير الكبير الذي ألحقه شلمناصر الثالث بقرى ومدن حوران، وهي لا شك كانت بمثابة خزان بشري لجيوش حزائيل، وفي نفس الوقت تشكل قاعدة قوية لاقتصاده وخاصة من الناحية الزراعية.

وبنتيجة حروب حزائيل مع بيت عُمري فإنه حولها إلى تابع له، وجعل جيشها، الذي كان في معركة قرقر مع الآشوريين من الجيوش الكبيرة، في حالة يُرثى لها، يقتصر على عشر مركبات وخمسين حصانًا وعشرة آلاف من الجنود المشاة، وبذلك لم يُعد بإمكانها أن تشكل أي تهديد لحزائيل[٢٠].

والمواجهة التالية بين حزائيل والآشوريين وقعت في العام الحادي والعشرين من حكم هذا الأخير، أي نحو العام ٨٣٨ ق.م. وشغلت أخبار هذه الحملة حيزًا من حوليات شلمناصر الثالث من ناحية، ومن اهتمامات الباحثين بتاريخ آرام دمشق من ناحية أخرى، لما تضمنته من ذكر لأسماء مدن ومقاطعات تابعة لها. ونورد فيما يلي نصًا يتضمن بعضًا من أخبار هذه الحملة: « ... في عامي حكمي الحادي والعشرين خرجت من...، مدن حزائيل الدمشقي فتحتها بالأنفاق والكباش وأبراج الحصار... دمرت المدن وحرقتها بالأرض دانابو وملاخو»[٢١].

ومثلما ذكرنا فإن النصوص حول هذه الحملة مهمة، لأنها تذكر لأول مرة، وعلى خلاف النقوش الآشورية السابقة التي تتعلق بالحملات ضد آرام دمشق، أسماء مدن تتبع لمملكة دمشق الآرامية، وهي دانابو وملاخو.

وقد ناقشنا في بحثنا عن دمشق الآرامية الآراء المطروحة حول موقع هاتين المدينتين باستفاضة، ولكن لا بأس من القول هنا وبإيجاز أن هناك خلاف كبير فيما يتعلق بموقع دانابو بين من يجعلها في صيدنايا الحالية أو دنيبة في منطقة إزرع والشيخ مسكين في حوران، وأما ملاخو فهناك العديد من المواقع بالقرب من دمشق أو حوران أو جبل العرب من الممكن أن تكون هي المقصودة[٢٢].

إن عدم تمكن شلمناصر الثالث من الاستيلاء على دمشق جعل حزائيل يتمكن من الاحتفاظ بقاعدة ملكه الأساسية، واتخاذها نقطة انطلاق في عملياته العسكرية، التي تمثل المرحلة الثانية من المراحل الثلاث التي كنا قد أشرنا إليها آنفًا[٢٣].

بعد حملة العام الحادي والعشرين من حكمه أو حملة العام ٨٣٨ – ٨٣٧ ق.م، توقف شلمناصر الثالث عن القيام بحملات أخرى نحو المنطقة السورية، نتيجة عوامل عدة من بينها ربما

19) دمشق الآرامية، ص 33.

20) Ancient Damascus: A Historical Study of the Syrian City – State from Earliest Times Until Its Fall to the Assyrians in 732 B.C.E.: Wayne Pitard. 1987. P 151.

21) Assyrian rulers of the Early First Millennium BC II) 858 – 745 (P 62.

22) انظر بحثنا: دمشق الآرامية ص 25 – 26.

23) A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. p 620.

هرم الملك شلمناصر الثالث، ولكن السبب الأهم وراء ذلك كان ولا شك التمرد الذي نشب في الدولة الآشورية بسبب تغيير شلمناصر الثالث ولي عهده، ونقله هذه الولاية من ابنه الاكبر إلى ابن آخر تولى العرش من بعده باسم شمشي أدد الخامس (٨٢٥ – ٨١١ ق.م). وقد عم التمرد مناطق واسعة من الإمبراطورية الآشورية ولم يبق سوى مناطق قليلة في آشور التاريخية خاضعة لشلمناصر الثالث، واضطر شلمناصر الثالث وولي عهده الجديد لبذل جهود ضخمة لإخماد هذا التمرد وتمهيد الأوضاع لاعتلاء ولي عهده العرش من بعده، وهذا الأمر شغله عن القيام بأي حملات نحو سورية. ومما لا شك فيه أن حزائيل قد استغل هذه الفرصة السانحة أمامه ليواصل خططه التوسعية في المنطق الفلسطينية.

كانت الحملة التالية الكبرى لحزائيل هي تلك التي وقعت بين العامين ٨٣٥ – ٨٣٢ ق.م، وكان من نتيجتها الاستيلاء على مدينة جت عاصمة مملكة جت أو جات، وكانت من الممالك التي أسستها شعوب البحر في المنطقة الفلسطينية (موقع تل الصافي الحالي في منطقة الخليل في فلسطين المحتلة) وتدميرها . وفي وقت حملة حزائيل عليها كانت (جت) أقوى دولة في الجنوب الفلسطيني مع مساحة وصلت إلى أكثر من خمسين هكتاراً، وسكان يزيدون على العشرة آلاف نسمة[٢٤]، وفرضت هيمنتها على كل دول المدن الفلسطينية وصولاً إلى شمالي النقب.

وربما كان صعودها في هذه المرحلة مرتبطًا بسياسة الأسرة الثانية والعشرين المصرية، وخاصة حكم الملك شيشنق الأول (٩٤٣ – ٩٢٣ ق.م). وعندما توجه حزائيل للاستيلاء عليها كانت إسرائيل قد خضعت بالفعل له، ولم يكن هناك من قوة سياسية كبيرة في فلسطين سوى جت، فأراد القضاء عليها لتكون له السيادة على المنطقة كلها[٢٥].

وعن استيلاء حزائيل على هذه المدينة لدينا خبر غير محدد التاريخ في سفر الملوك الثاني ١٨ : ١٢ «وفي ذلك الوقت هاجم حزائيل ملك آرام مدينة جت واستولى عليها، ثم توجه لأورشليم لمحاربتها». وإلى جانب هذا النص لدينا نتائج أعمال التنقيب الأثري التي قامت بها في الموقع بعثات تابعة للاحتلال الإسرائيلي. وقد كشفت هذه التنقيبات عن خندق حصار، نسبه المنقبون إلى حزائيل. كان الخندق بعمق ستة أمتار وعرض ستة أمتار، ويحيط بالمدينة بطول يمتد إلى نحو ٢كم من ثلاث جهات، وحسب رؤية المنقبين كانت الغاية من حفر هذا الخندق منع المحاصَرين من الهروب، ومما لا شك فيه فإن وجود الخندق منع أي مساعدة خارجية قد تتلقاها المدينة المحاصرة أيضًا . وقد تم تأريخ هذا الخندق بالاستناد إلى الفخاريات التي وُجدت في الموقع وإلى وجود تشابه بين الأسلوب الذي اتُّبع في حصار تل الصافي وحصار حزرك الوارد في نقش زكور ملك حماة ولعش[٢٦].

ومن المعلوم أن برهدد الثالث بن حزائيل كان هو من قاد مجموعة من الإمارات السورية في حصار حزرك. وقد ورد في النقش الذي أمر بوضعه زكور ملك حماة ولعش بعد فشل الحصار وانفضاضه عنه ما يلي: «فوحد برهدد بن حزائيل ملك آرام ستة عشر ملكا ...، ورفعوا سوراً

)24(State Formation in the Southern Levant – The Case of the Arameans and the Role of Hazael s Expansions. In Research on Israel and Aram. Leipzig. 2016. P 354.
)25(Hazael in the South ; Gunnar Lehman. In ; Research on Israel and Aram. Leipzig. 2016. P 279 – 280.
)26(A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. P 625.

مسلة جنائزية من البازلت تحمل نقشاً آرامياً (القرن السابع ق.م) كشفت في تل آفس في سورية

(أعلى) من سور حزرك، وحفروا خندقًا (أعمق) من خندقها»[٢٧].

وقد حاول بعض الباحثين ربط الدمار الذي يُشاهد في تل الصافي بالآشوريين، ولكن أسلوب الحصار عن طريق حفر الخنادق لا نجد له مثيلاً في الأساليب العسكرية الآشورية.

لقد كان لاستيلاء حزائيل على جات صدى كبير في المنطقة الفلسطينية، وأعطاه الحافز نحو متابعة السير نحو القدس بغرض الاستيلاء عليها وضمها إلى ممتلكاته، ولكن حاكمها ملك يهوذا دفع له إتاوة تمثلت في كل ما كان في خزائنه وخزائن معابده من ثروات ليُبعد حزائيل عنها، وهذا ما نقرؤه في تتمة ما أوردناه أعلاه مما ورد في سفر الملوك الثاني بشأن استيلاء حزائيل على مدينة جات: «وفي ذلك الوقت هاجم حزائيل ملك آرام مدينة جت واستولى عليها. ثم توجه إلى إورشليم لمحاربتها. فأخذ يوآش ملك يهوذا جميع ما كرسه يوشافاط ويورام وأخزيا آباؤه ملوك يهوذا تقدمة للرب، وما كرسه هو أيضًا، وكل الذهب الموجود في خزائن هيكل الرب وقصر الملك وأرسلها إلى حزائيل ملك آرام، فانصرف عن أورشليم» (ملوك ثاني ١٢ : ١٨ – ١٩).

ولعلنا نتساءل هنا لماذا لم يستولِ حزائيل على أورشليم بعد أن كان أمر الاستيلاء عليها مفروغًا منه؟ وهنا نستطيع أن نُخمِّن أن حزائيل قد حقَّق بدون حرب ما كان سيحققه فيما لو استولى على المدينة. بمعنى أنه حصل على إتاوة ضخمة من ملك يهوذا تمثلت كما مر معنا بكل ثروات بلاده، ومن ناحية أخرى فإن هذه المملكة أصبحت تحت وصاية حزائيل من الآن فصاعدًا، وتحول ملكُها إلى تابع له، وربما الاستيلاء على المدينة كان سيكلفه خسائر مادية وبشرية هو في غنى عنهما، كما أن الاستلاء عليها ربما أخذ منه وقتًا طويلاً، ولذلك قَبل بعرض ملكها وانصرف عنها. ولنا سوابق على هذه الحال مثلاً مع الآشوريين الذين كانوا َفي كثير من حملاتهم يكتفون بأخذ الإتاوة من الإمارات والممالك التي يمرون عليها وبتأدية يمين الولاء من حكامها ومن ثم ينصرفون عنها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن من المؤرخين من يربط آثار الدمار في مواقع فلسطينية أخرى غير تل الصافي (جات القديمة) أيضًا بحملات لحزائيل في المنطقة الفلسطينية. فمثلاً يرى ليبينسكي أن تدمير الطبقة التاسعة في أشدود الساحلية، وكذلك بيت شمش غربي القدس، قد كان نتيجة لهذه الحملات[٢٨].

بعد حملات حزائيل في المنطقة الفلسطينية واستيلائه على مناطق واسعة منها وصلت ربما حتى النقب، ولم يحكمها كلها بصورة مباشرة، قام حزائيل بإعادة تنظيم للمنطقة بأسرها، وخاصة أراضي مملكة جت المدمرة، التي وزع أراضيها على جيرانها السابقين، من بينهم يهوذا ومدن فلسطينية من مثل عقرون (تل مكنة حاليًا غربي القدس)، وأشدود وعسقلان وغزة التي كانت تخضع لسيطرته[٢٩].

وإذا أردنا أن نعرف السبب وراء حملات حزائيل في المنطقة الفلسطينية، فعلينا أن نعود إلى

27) اللغة الآرامية القديمة، فاروق إسماعيل، ص211.

28) The Aramaeans ، Their Ancient History، Culture، Religion: Edward Lipinski، Leuven – Paris، 2000. P 387 – 388.

29) Hazael in the South ; Gunnar Lehman. P 288.

الدافع الاقتصادي الكامن وراء هذه الحملات، ففيما كان يُعتقد فيما مضى أن حزائيل كان يسعى للوصول إلى ميناء العقبة للوصول إلى تجارة البحر الأحمر، فإن الاتجاه الآن يميل إلى أن السبب وراء هذه الحملات كانت السيطرة على تجارة النحاس، ففي سياق طموحاته الإمبراطورية كان حزائيل في حاجة إلى زيادة الموارد الطبيعية، فالقوة السياسية بحاجة لقوة اقتصادية، وبناء المدن والدولة والجيش يتطلب طاقة كمية كبيرة من الموارد، وهذه الموارد كانت إضافة لذلك باهظة الثمن، ومن خلال السيطرة على تجارة النحاس في النقب، استطاع حزائيل، تحقيق قوة إقليمية والسيطرة على الموارد بنفس الوقت.

وهنا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن التجارة الإقليمية للموارد الطبيعية كانت ترتبط بالرسوم الجمركية، بمعنى أن من يسيطر على المناطق التي تمر عبرها طرق التجارة يستطيع فرض الرسوم التي يريدها وتحقيق عوائد عالية منها تدعم قوته السياسية، وبالنسبة لحزائيل فإن تدميره لجت كان جزءًا من مشروعه لفرض السيطرة على أماكن استخراج النحاس والطرق التي تمر تجارتُه عبرها، وحتى وصولاً إلى شاطئ البحر المتوسط[٣٠].

الاتجاه الثاني لتوسع حزائيل كان نحو الشمال، وهنا أيضًا لا توجد لدينا معلومات موسعة يمكن الاعتماد عليها مباشرة، وكل ما بحوزتنا هو نقوش قصيرة نحاول من خلالها الوصول إلى المدى الذي وصل إليه حزائيل شمالاً.

كما ذكرنا عند حديثنا عن مصادر الدراسة، فلدينا بضعة نقوش آرامية تُنسب إلى حزائيل، ويُستدَل بها على أن الشمال السوري ومناطق شرقي الفرات كانت خاضعة لسلطة آرام دمشق في عهد حزائيل إن لم يكن في عهد سلفه برهدد الثاني.

في العام ١٩٨٨ كُشف عن لجام فرس من البرونز في جزيرة ساموس في اليونان عليه كتابة آرامية نُسبت إلى حزائيل، ومحتوى الكتابة هو: «الذي أعطى (الإله) هدد لسيدنا حزائيل (وادي) العمق في سنة عبور النهر»[٣١]. وقد أثار هذا النقش جدلاً بين المختصين حول واضع هذا النقش والوادي والنهر المقصودين في هذا النقش.

في البداية افترض البعض أن اسم هدد الوارد في النقش هو اسم علم لحاكم في منطقة العمق، وقد أهدى هذا اللجام، ربما من ضمن مجموعة أخرى من الهدايا، إلى حزائيل عندما وصلت قواته إلى منطقة سهل العمق _ منطقة العمق. ولكن هذا الاحتمال غير وارد، لأن أسماء حكام مملكة باتينا التي كانت تسيطر على سهل العمق خلال القرنين التاسع والثامن ق.م معروفون لنا من خلال مجموعة من الوثائق الآشورية والحثية الجديدة، وهي في معظمها أسماء غير سامية. ومن ناحية أخرى قدَّر آخرون أن الاسم هنا ليس اسمًا لملك من العمق، وإنما هو أحد قادة حزائيل الذي أهدى إليه هذا اللجام بمناسبة الانتصارات والنجاحات التي حقَّقها[٣٢].

ولكن افتراض أن المقصود بهدد هنا اسم علم لم يلق قبولاً في أوساط المختصين إلى حد

---

(30) State Formation in the Southern Levant – The Case of the Arameans and the Role of Hazael s Expansions. P 359 – 361.

(31) اللغة الآرامية القديمة، فاروق إسماعيل، ص29.

(32) A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. P 627.

كبير، فهؤلاء رأوا أنه ومع إمكانية أن يكون هذا الاسم اسمًا لعلم فإنه هنا بدون شك اسم إله العاصفة الآرامي هدد. وأكد الباحث غوتسو «أنه لو كان اسمًا شخصيًا لكان له لقب أو اسم عائلة، حيث لا يتم استخدام الفعل الآرامي (ن. ت. ن) لشخص يُكرس شيئًا ما (يُقدم تقدمة لإنسانٍ آخر أو إله)، ولكن الأحرى أنه يُستخدم مع الآلهة التي تمنح شيئًا ما لإنسانٍ ما[٣٣].

ونحن نميل إلى الأخذ بهذا الرأي؛ أي أن الاسم هنا ليس اسم علم، وإنما اسم الإله هدد، وذلك بناءً أيضًا على شواهد من نصوص آرامية وغير آرامية تتضمن موضوعات مماثلة.

وأما عن المنطقة المقصودة، فقد دار الجدل حول نقطتين في النقش، الأولى تتعلق بالمنطقة المقصودة بالاسم «العمق»، والثانية تتعلق بالمقصود بالفعل «عبر»، والنهر الذي تم عبوره، ففي حين يرى غالبية الباحثين أن المقصود بالوادي هو سهل العمق في شمال غربي سورية، رأى آخرون أنه ربما كان المقصود هو سهل البقاع في لبنان حاليًا، الذي كان يُسمَّى، كما يزعم هؤلاء، في المصادر أيضًا بسهل العمق[٣٤].

وأما عن مسألة العبور، وهي المسألة الثالثة التي يثيرها هذا النقش رغم أنه مؤلف من سطر واحد، فهي المقصود من الفعل «عبر»، وأي نهر عبرت قوات حزائيل؟ فالباحثة ديون ترى أن كلمة النهر عندما ترد في النقوش فعادة ما يكون المقصود فيها نهر الفرات، وعلى ذلك فهي ترى أن قوات حزائيل عبرت نهر الفرات إلى الأراضي التي كانت تشكل جزءًا من أراضي الإمارة الآرامية الشهيرة على الفرات بيت عديني، التي قضى على استقلالها شلمناصر الثالث خلال السنوات الأولى من حكمه[٣٥].

أي أن حزائيل لم يكتف باستغلال المشاكل التي كانت تمر بها المنطقة للتوسع في الجنوب، وإنما تجاوز ذلك ليتوسع في مناطق لا نقول إنها من أراضيها التاريخية، وإنما هي على الأقل تقع على حدودها مباشرة. وفي المقابل لا يوافق كثيرون على ما ذهبت إليه الباحثة ديون، ويرون أن المقصود بالنهر هنا نهر العاصي، والعبور كان لهذا النهر، وخاصة أن «العبور» ذُكر مع منطقة العمق.

ويقول ليبينسكي «إن هذا النهر يمكن أن يكون نهر الفرات، ولكن ذكره مع العمق يوحي بعبور نهر العاصي، كلمة (نارو – نهر) غالبًا ما ترد في النصوص الآشورية دون أي قيد ويمكن أن تشير إلى أي نهر وفقًا للسياقات المختلفة»[٣٦].

ونحن مع هذا الرأي الذي يقول إن المقصود نهر العاصي وسهل العمق، ولكن ما نود الإشارة إليه هنا هو أن الوصول إلى منطقة العمق كانت تفرض على حزائيل اجتياز أراضي مملكة حماة الآرامية، ونحن نعلم أن آرام دمشق وحماة كانتا على رأس التحالف الذي واجه شلمناصر الثالث في معركة قرقر إلى الشمال من حماة، واستمرا في التحالف إلى مطلع أربعينات القرن

)33(A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. P 628 .
)34(Les Arameens A L` Age du Fer: Dion. P 201.
)35(Les Arameens A L` Age du Fer: Dion. P 202 .
)36(The Aramaeans ، Their Ancient History، Culture، Religion: Edward Lipinski، Leuven. 2000. P 389.

إله آرامي يعود للقرن الثامن للميلاد في متحف آثار حماة

التاسع ق.م. ولكن حماة تخلت عن هذا الحلف وتركت ملوك دمشق يواجهون تقدم الجيوش الآشورية منفردين، فكيف يتمكن الآن حزائيل من اجتياز أراضي حماة للوصول إلى سهل العمق؟ إلا أن يكون هذا الأمر قد تم بموافقة حماة التي ربما استشعرت هي أيضًا انشغال الآشوريين بمشاكلهم الداخلية وعدم اهتمامهم بما يجري في سورية فسمحوا لحزائيل بالمرور عبر أراضيهم.

وهناك احتمال آخر، وإن كنا لا نستطيع أن نكون واثقين منه في ظل انعدام الشواهد النصية، وإن كنا نميل إليه بحكم الواقع السياسي الذي أصبح واقعًا في المنطقة السورية الفلسطينية في هذه الفترة، ونقصد بذلك أن حماة وفي ظل تصاعد قوة آرام دمشق في عهد ملكها حزائيل أصبحت تدور في فلك نفوذ دمشق السياسي، وأنه لم يكن لها القرار بالسماح أو عدم السماح بمرور قوات حزائيل.

والاستنتاج الآخر يتعلق بنتائج هذه الحملة، فهل تحولت مملكة باتينا التي كانت تسيطر على سهل العمق إلى مملكة تابعة لدمشق؟ أم كانت مجرد حملة عسكرية قام بها حزائيل لإظهار قوته أمام الآخرين وجمع الغنائم؟ هذا أمر لا نستطيع الجزم به في ظل انعدام المعطيات حول ذلك.

بعد كل ما ذكرناه أعلاه عن أعمال حزائيل العسكرية، هل نستطيع القول بأنه وصل لتأسيس إمبراطورية آرامية دمشقية؟ هناك من يقول إن مثل هذه الإمبراطورية أسسها حزائيل بالفعل، واستمرت في الوجود بنفس القوة والزخم حتى الفترة الأولى من عهد ابنه برهدد الثالث، الذي نعلم من خلال نقش زكور الذي ذكرناه سابقًا أنه حاول إخضاع حماة عسكريًا لسلطته عندما حاولت الخروج على هذه السلطة، وحشد لهذه الغاية حلفًا مؤلفًا من ستة عشر ملكًا من ملوك شمال ووسط سورية، ولكن ما أدى إلى تراجع أحوال هذه الإمبراطورية هو استعادة آشور لعافيتها وعودة جيوشها للتوغل في الأراضي السورية غرب الفرات وصولاً إلى دمشق، وخاصة في عهد ملكها أدد نيراري الثالث.

ونحن نرى أن حزائيل تمكن بالفعل من إقامة مملكة آرامية واسعة فرضت سيطرتها على أنحاء واسعة من سورية وفلسطين، ولكنها لم تصل مثلاً إلى حجم الإمبراطورية الأكادية أو الآشورية اللتين كان لهما امتداد جغرافي واسع وتمكنتا من العيش لفترات طويلة.

وتبقى معلوماتنا عن السنوات الأخيرة من حكم حزائيل شبه معدومة، لكننا نستطيع القول بأن الهيمنة التي فرضها على المنطقة السورية – الفلسطينية في ظل إضعافه لخصومه واستمرار غياب الآشوريين، نقول إن هذه الهيمنته والسلطة بقيت راسخة، وورَّثها في وقت ما قرب نهاية القرن التاسع ق.م لابنه الذي اعتلى عرش دمشق من بعده وعُرف باسم برهدد الثالث.

تمثال هد-يسعي الذي أقامه قدام (الإله) هدد

رابعًا _ تأليه حزائيل:

ذهب كثيرٍ من الباحثين إلى أن حزائيل، ونتيجة المكانة والقوة التي بلغهما، قد أُلِّه في دمشق بعد وفاته، وإن كنا لا نعرف مثل هذه العادة عند الآراميين في ممالكهم الأخرى، ربما لأن أحد الملوك الآخرين لم يصل إلى المكانة والقوة التي وصل إليها حزائيل.

ويستند كل من قال بهذا الرأي على رواية وردت عند المؤرخ اليهودي يوسيفوس، تقول «ثم تولى أزيلوس السلطة الملكية بنفسه، لكونه رجل أعمال (كثيرة)، وله نعمة كبيرة لدى السوريين وشعب دمشق، الذين حكمهم أدادوس وأزيلوس من بعده، تم تكريمهم إلى يومنا هذا كآلهة بسبب نفعهم وبنائهم المعابد التي زيَّنوا بها مدينة دمشق، ولديهم مواكب كل يوم لتكريم هؤلاء الملوك ومجدهم»[٣٧]. واسم أزيلوس الوارد هنا هو الصيغة الإغريقية لاسم الملك حزائيل، وأما اسم أدادوس فقد رأى فيه بعض الباحثين اسم الإله هدد الآرامي، ولكن هذا الاحتمال ضعيف، والاحتمال الأكبر هو أنه سلف حزائيل على عرش دمشق برهدد الثاني، الذي ذُكر في العهد القديم باسم بنهدد وفي النصوص الآشورية باسم حدد – إيدري. ويُعتقد أن مصدر رواية يوسيفوس هو المؤرخ نيقولا الدمشقي الذي عاش في القرن الأول ق.م، الذي كان على دراية بالممارسات الدينية التي كانت سائدة في مدينته[٣٨].

)37(Ancient Damascus: A Historical Study of the Syrian City – State from Earliest Times Until Its Fall to the Assyrians in 732 B.C.E.: Wayne Pitard. 1987. P 197.

)38(A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. P 631.

_ الخاتمة:

حاولنا في هذا البحث تسليط الضوء على شخصية نعتقد أنها لم تنل حقَّها من البحث في المؤلفات العربية، ونقصد بذلك حزائيل الملك الآرامي الدمشقي، الذي تولى الحكم في ظروف صعبة كانت تمر بها المملكة بعد فاة الملك السابق، وتعاظم خطر الآشوريين مع استمرار حملاتهم العسكرية في المنطقة السورية، وتخلي حلفاء الأمس عن المشاركة في التصدي لهذه الحملات، بل وانقلاب البعض منهم إلى أعداء حاولوا استغلال مرض الملك برهدد الثاني للاستيلاء على مناطق من مملكة دمشق.

ولكن حزائيل أثبت أنه رجل دولة يستطيع التصدي لكل هذه الصعاب، فلم يكتف برد العدوان واسترجاع ما فقدته دمشق خلال مرض سلفه، وإنما وسع المناطق الخاضعة لسيطرتها، وأضعف من قوة أعدائها القريبين منها (بيت عُمري ويهوذا)، وحوَّلهما إلى قوى تابعة له، وقضى على البعض الآخر بغية تحقيق فوائد اقتصادية (مملكة جت الفلسطينية)، وتصدى لآخر الحملات الآشورية نحو سورية في عهده (٨٣٨ – ٨٣٧ ق.م)، لينطلق بعدها في حملةٍ ناجحة نحو الشمال السوري وصولاً إلى سهل العمق في أقصى الشمال الغربي من سورية.

وشكل بذلك حزائيل مملكة آرامية دمشقية فرضت سيطرتها على معظم المنطقة السورية الفلسطينية.

شاهدة قبر من البازلت عليها الكاهن سي غابور كاهن إله القمر (القرن السابع ق.م) تحمل نقشاً آرامياً كشفت في تل آفس في سورية

مصادر البحث ومراجعه

ـ المراجع العربية:

ـ بيت داود حقيقة أم خيال: زيدان كفافي، مجلة أدوماتو، العدد ٢٥، صفر ١٤٣٣ه – يناير ٢٠١٢م.

ـ تاريخ سورية السياسي ٣٠٠٠ – ٣٠٠ ق.م: هورست كلينغل، ترجمة: سيف الدين دياب، مراجعة وتعليق عيد مرعي، دار المتنبي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨ .

ـ تاريخ الوطن العربي القديم: جباغ قابلو، عماد سمير، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٧ .

ـ دمشق الآرامية، التشكل والاسم والمعنى والتاريخ، مجلة تاريخ دمشق، العدد الأول ٢٠٢١ .

ـ العهد القديم ترجمة بين السطور: الأبوان بولس الفغالي وأنطوان عوكر، الجامعة الأنطونية ٢٠٠٧ .

ـ غزوات شعوب البحر: نزار مصطفى كحيلة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٧ .

ـ اللغة الآرامية القديمة: فاروق إسماعيل، منشورات جامعة حلب ١٩٩٧ .

_ المراجع الأجنبية:

- Ancient Damascus: A Historical Study of the Syrian City – State from Earliest Times Until Its Fall to the Assyrians in 732 B.C.E.: Wayne Pitard. 1987
- A Political History Of The Aramaeans: K. Lawson Younger Jr، Atlanta، SBL Press. 2016.
- The Aramaeans ، Their Ancient History، Culture، Religion: Edward Lipinski، Leuven – Paris، 2000.
- Les Arameens A L` Age du Fer: Dion، P.E، Paris، 1997.
- Assyrian Rulers of the early First Millennium BC، 1 (1114 – 859): A. Kirk Grayson، University of Toronto Press 1991.
- Assyrian Rulers of the Early First Millennium BC II (858 – 745): A. KIRK Grayson، Toronto، London، University Toronto press، 19967-
- Hazael in the South ; Gunnar Lehman. In ; Research on Israel and Aram. Leipzig. 2016.
- State Formation in the Southern Levant – The Case of the Arameans and the Role of Hazaels Expansions. In Research on Israel and Aram. Leipzig. 2016.
- The Damascene Subjugation of the Southern Levant as a Gradual Process (ca. 842 – 800 BCE). In: Search for Aram and Israel. Politics، Culture، and Identity. Edited by Manfred Oeming …، Tübingen 2016.